"**الكَرَك**" ، **أو** "**الكَرْك**" حسب (ياقوت : معجم البلدان :٤/٤٥٢) ، أو "**كَرَك نوح**" كما هو دائرٌ على الألسنة ، نسبةً إلى نبي الله نوح (ع) حيث يوجدُ فيها مقامٌ منسوبٌ إليه . وبهذا الاسم الأخير أوردها فريحة في (معجم أسماء المُدُن والقرى اللبنانيّة/١٤٥) . . هي اليومَ ضاحيةٌ لمدينة "زحلة" مركزِ "مُحافظة البقاع" ، يبلغُ عديدُ سكانها زهاء العشرة آلاف نسمة . ولكنها كانت في ماضي أيامها المركزَ السُّكانيّ والإداريّ لِما حولها من "البقاع العزيزي" (ابن فضل الله العُمري : التعريف بالمصطَلَح الشريف /١٧٩والقلقشندي: صبح الأعشى :٤/١١٠) . قبل أن تنهضَ مدينةُ "زحلةُ" المُجاورة قبل زُهاء المائتي عام من تجمُّعٍ للمسيحيين الكاثوليك القادمين من مُختلف مناطق "سوريّة" و "الأناضول" و"جبل لبنان" (عيسى المعلوف : دواني القُطوف / ١٢٠) . كما كانت مابين أواسط القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد وأواسط القرن العاشرللهجرة/السادس عشر للميلاد أحدَ مراكز العلم الشيعيّة ، التي نبتتْ في ظلّ النهضة العلميّة الكبرى التي قادها الشهيد الأول محمد بن مكي الجزّيني (ق:١٣٨٦هـ/١٣٨٤م) من "جزّين" . وإنْ يكنْ هناك من الدّلائل ما يكفي على أنّها ملكتْ من الحوافز النهضويّة الأوّليّة مثيلَ ما ملكتْ "جزّين" . ولكنّ أعمالَ الشهيد الباهرة دفعت "الكرك" إلى خلفِ "جزّين" ونهضتها .

يقول ابن منظور في (لسان العرب:١٠/٤٨١) أنّ "كرْك" بمعنى الجبل . وحسب (فريحة : نفسه) فإنّ "كِرْخا" كلمةٌ آراميّة تعني "**مدينةً ذات سُورٍ يُحيطُ بها ، مدينة مُحصّنة**" . وعلى هذا فإنّ البلدة عريقة جدّاً ، وأنّ أصلَها موقعٌ مُحصّنٌ على الطريق الاستراتيجيّة المُوصلةُ بين وسط "سوريّة" و "دمشق" . شأنَ مواقعَ أُخريات مثل قلعتي "اللبوة" و"قصرنبا" وتلال "الدّلهميّة" ، وأبرزُها قلعة "بعلبك" .

والظاهرُ أنّ أصلَ البلدة السُكّاني يرجعُ ، جزئيّاً على الأقلّ ، إلى قرية "بحوشيّه" الدّارسة ، التي كانت قديماً شمالي "الكرك" ، على رأس الهضبة التي تستقرُّ هذه اليومَ أدناها . ولم يبقَ منها اليومَ سوى قبورٌ دوارس وخرائبُ تدلُّ على مسجدٍ أو أكثر . ولكنّ الموقع احتفظ باسمه التاريخي ، حيث ما يزال يُعرف باسم "بحوشه" .

لسنا نعرفُ الظرفَ الذي أدّى إلى اندثار "بحوشيّه" والتحوّل السُكاني باتجاه "الكرك" ، فنُهوضُها من موقعٍ عسكريٍّ مُحصَّنٍ إلى قرية . على أنّه ليس من الضروريّ أن يكونَ هناك ظرفٌ خاصٌّ . فكثيراً ما يجذبُ المركزُ العسكريّ المدنيين السّاعين للعمل في الأعمال المدنيّة التي يحتاج إليها المركز . ومع الوقت يستقرّون إلى جواره . وعندنا من الأمثلة على ذلك نشوءُ "تبنين" في أعالي "جبل عامل" حول قلعتها الصليبيّة ، ونشوء

"قصرنبا" شرقي "الكرك" حول قلعتها أيضاً ، إلى غيرهما وهو كثير . وممّا يؤيّدُ ذلك أنّ "بحوشيّه" وُصفتْ في مصدرٍ من القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد بأنّها "شمال كرك نوح" (اليونيني : ذيل مرآة الزمان:٣/٦٦) . وأنّ أولَ من نُسب إلى "الكرك" من أهل العلم هو العالِم والمُحدّث الشيعي أحمد بن طارق الكركي (٥٢٧.٥٩٢هـ/١١٣٢.١١٩٥م) عاش في القرن السادس/الثاني عشر "وكان جدّه قاضي كرك نوح" (الذهبي: سيرأعلام النبلاء:٢١/٢٧٠) . ولا قاضيَ إلا في بلدٍ عامر . أي في الوقت الذي كانت فيه "بحوشيه" عامرةً أيضاً . وهذا يُشير ضمناً إلى أنّ التحوّل السُكاني التدريجي باتجاه "الكرك" قد حصل بالتدريج ، قبل أو قُبيل القرن السادس/الثاني عشر .

هذه النتيجة تطرحُ سؤالاً على أصل وتاريخيّة المقام المنسوب إلى نبي الله نوح (ع) ، الذي يقومُ اليومَ في وسط البلد . فهل كان المقام من ضمن الموقع المُحصّن الذي قلنا أنّه أصل البلدة ، أم أنّه كان خارجَها ولحقه نموُّها فيما بعد؟ سؤالٌ لا نملكُ عليه جواباً ، وإن كنّا نُرجّحُ الاحتمال الثاني لأسبابٍ واضحة . ولكنّنا نذكرُ أنّ المسجد المجاور للمقام هو أوّلُ مسجدٍ للشيعة نعرفه في القسم الشرقي من "سهل البقاع" ، المعروف بـ "البقاع البعلبكي" . والظاهر أنّه ظلّ المسجدَ الشيعيَّ الوحيدَ في تلك المنطقة حتى شاد الأميرُ يونس بن حسين الحرفوش (حكم:١٠١٧ .١٠٣٥هـ /١٦٠٨.١٦٢٥م) المسجدَ المنسوب إليه في "بعلبك" سنة ١٠٢٨هـ/١٦١٨م . كما نذكر أيضاً بالمناسبة أنّنا عثرنا أثناءَ حفريّاتٍ أُجريت حيث كانت "بحوشيّه" ، أملاً بالعثور على ما يُنير تاريخ المنطقة ، على سجدةٍ من الطين المصبوب ، ممّا درجَ الشيعةُ على اتخاذه للسجود ، على أحد وجهيها البيت المشهور:

نادِ عليّاً مُظهرَ العجائب تجِده عوناً لك في النّوائب

وهذا كشفٌ ذو دلالات ، لا نُريدُ الخوضَ فيها الآن ، بانتظار معلوماتٍ إضافيّة.

ليس هذا فقط . أعني أنّ "بحوشيّه" لم تكن الظهير السُكاني لـ "الكرك" حسبُ . بل هناك من الأدلّة على أنّها كانت أيضاً الظهيرَ الثقافي . وممّا بقي ذكره من ذلك سيرةُ الأمير الفقيه نجم الدين محمد بن مُوفّق بن الزّهر التنّوخي ، وهو جدٌّ لأُسرةٍ تحمل الاسم نفسه "الزّهر" ما يزال أبناؤها حتى اليوم في المنطقة . وقد توفي هذا الأمير " ليلةَ السبت سابع عشر شهر رجب [سنة ٦٧٢هـ/١٢٧١م] بقرية بحوشيّه ، ودُفن بها عند أهله . وهو في عشر الستين . وكان عنده ديانة وتشيّع ومعرفة بمذهبه وتغالي [صح: وتغالٍ] فيه . كثير المكارم حسن الصحبة والأدب مع مَن يصحبُه " (ذيل مرآة الزمان:٣/٨١.٨٢) . وأخوه الأمير سيف الدين عيسى الذي "كان من أعيان الأُمراء الجبليين [. . . ،] كثير

الخير والمرؤة صادق اللهجة [. . . .] توفي ببعلبك ليلة الأحد خامس صفر [سنة ٦٧٢هـ] وحُمل إلى قرية بحوشيّه من قرى البقاع البعلبكيّة ، وهي شمال كرك نوح ، فدُفن بها عند أهله" (نفسه :٦٦.٦٥/٣) ، ووالدهما الأمير ناصر الدين "كان خصيصاً بالملك الصالح" عماد الدين إسماعيل الأيوبي صاحب "دمشق" (حكم ٦٣٤هـ/١٢٣٢م) (أيضاً) . كما أنّ اليونيني يذكر عَرَضاً "الفقيه شمس الدين محمد الأنصاري المُقيم ببحوشيّه" (أيضاً ٤٣٥/٣) . وذلك بمناسبة ما كتبه إليه هذا عن وفاة الفقيه الجليل أبو القاسم الحسن بن الحسين بن العَوْد الحلبي الذي أقام في "جزّين" وتوفي فيها سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م ، بعد أن أُخرج من بلده "حلب" قسراً (انظرالترجمةَ له في كتابنا أعلام الشيعة/٥٥.٤٥٤ ومصادره) .

ممّا لا ريب فيه أنّ هذا المُناخ غير المُتوقّع في "بحوشيّه" هو جزءٌ من كلٍّ . أي أنّه ليس وافياً بذكر مَن كانوا فيها من فقهاء الشيعة في ذلك التاريخ المُبكّر. كما أنّه يصِفُ ضمناً وضعاً لم يكن محصوراً بها وحدها ، بل له علاقةٌ بجوارها .

أمّا الأوّل ، فلأن ذينك الفقيهيَين لم يُذكرا في سياق الاستيفاء والبيان التامّ ، بل بمناسبة التأريخ لوفياتٍ ، وفقاً لِما درجَ عليه منهجُ المؤرخين آنذاك .

وأمّا الثاني ، فلأنهما ، أعني ذينك الفقيهيَين ، كانا ولا ريب جزءاً من ظاهرةٍ أعمّ . ما من شكٍّ في أنها كانت تتصلُ بـ "كسروان" المُجاورة ، وبما كانت عليه من حياةٍ عقليّةٍ قبل نكبة أهلها سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م . ممّا ضاع ذكرُه نهائيّاً بعد وبسبب النكبة . ولم يبقَ منه إلا إشاراتٌ متناثرةٌ في المصادر (راجع مادة : كسروان) .

فهذا كلّه : من ظهير "بحوشيّه" خلف "الكرك" ، ومن ظهير "كسروان" خلف "بحوشيّه" ، يضعنا في مُناخ تاريخٍ مُتصلِ الحلقات . سيكون علينا أن نتابعه وهو ينضج ويؤتي ثمراته اليانعة في "الكرك" ومركزيّتها العلميّة في نطاق النهضة العامليّة الكبرى.

وأوّل مَن نقعُ عليه في الحديث عن "الكرك" في طور نهضتها هو حسين بن محمد بن هلال الكركي (ح:٧٥٧هـ/١٣٥٦م) . وهو تلميذٌ للشهيد الأول محمد بن مكّي الجزيني . التقى به في "الحلّة" وقرأ عليه وأجازه بتاريخ ١٢ شعبان٧٥٧هـ/١٣٥٦م . ونصُّ الإجازة محفوظٌ في (رياض العلماء لعبد الله أفندي:٣٧٤/٣) . إذن ، فابنُ هلال هذا هو رائدُ الهجرة إلى "العراق" في طلب العلم من أهل بلده . على أنّنا عاجزون عن تقدير تأثير

ريادته ، لأننا لانجدُ له ذكراً في غير تلك الإجازة. ولم يترجم له الحرُّ العاملي في (أمل الآمل). الأمرُ الذي يبعثُ على الريب في أنه قد رجع إلى بلده أصلاً لسببٍ أو لغيره .

ومع ذلك فإنه لا يفوتُنا أن نلتقطَ مغزى ارتحال ابن هلال إلى "الحلّة" . فهو في بادرته هذه كان أميناً على تاريخ بلده . كما كان أميناً أيضاً في التعبير تعبيراً فصيحاً عن استمرار ذلك التاريخ ، ومن هنا رأيناه ساعياً إلى إعداد نفسه لمُهمّة التسامي به عن المستوى الذي كان عليه .

ثاني الروّاد محمد بن عبد العالي الكركي (ت:٨٠٨هـ/١٤٠٥م) . ذكره (المجلسي: بحار الأنوار:٢٨/١٠٧) ، نقلاً عن مجموعة محمد بن علي الجُباعي مؤرّخاً لوفاته . ثم أعاد ذكرَه في الصفحة التالية حيث قال :"ومن خطّه [يعني الجُباعي] من مكاتبة الشيخ السعيد شمس الدين محمد بن مكّي تهنئةً لتلميذه الشيخ شمس الدين محمد بن عبد العالي الكركي" . ثم أورد ثمانية أبيات نفهم منها أن سبب التهنئة هي عودة التلميذ من الحجّ . وذلك كلّ ما نعرفه عن ابن عبد العالي ، الذي نظنُّ أنه عمّ المحقّق الكركي علي بن الحسين بن عبد العالي . كما نظن أنه درس في "جزّين" . وبذلك يكون رائدَ العلاقة بين بلده وبين أُمّ النهضة العامليّة . ولم تُذكر له مصنفات أو تلاميذ .

فهاتان ريادتان من طورَين ومَنزَعيَن مختلفيَن ، تشهدان على تحفّز "الكرك" باتجاه التسامي بذاتيّتها الثقافيّة ، عبّرَ عنه على التّوالي اثنان من أبنائها . نسوقُهُ إلى حيث وصلَ إلى غايته على يد ثالث الروّاد عز الدين الحسن بن يوسف بن العشرة الكسرواني (ت:٨٦٢هـ/١٤٥٧م) ، الرجل الذي أسّسَ لبلده مركزيّةً علميّةً ، فأدخلها التاريخ من أوسع الأبواب.

والذي يؤخَذُ من نسبته "الكسرواني" أنه من أُسرةٍ ترجعُ بأُصولها إلى "كسروان" المنكوبة . ونحن نعرفُ أنّ الذين نجوا من مذبحة "كسروان" المَهولة قد "تفرّقوا في جزين وبلادها والبقاع وبلاد بعلبك" (ابن يحيى : تاريخ بيروت/٩٦) . كما نعرفُ أنّ عدداً غير قليلٍ منهم ، نعرفُ بعضَهم بأسمائهم ، قد استقرّوا في "الكرك" (كتابنا : الشهيد الأوّل عصره سيرته أعماله وما مكث منها /١٦٩ومصدره هناك : كتاب وقف السلطان الناصر محمد بن قلاوون على مدرسته بالرّميلة/٦٦ و٧٤و١٩٠) .

درس ابنُ العشرة ، على اثنين من تلاميذ الشهيد ، هما الحسن بن أيوب الأعرج الشهير بابن نجم الدين ، ومحمد بن عبد العلي / العالي بن نجدة (ت:٨٠٨هـ/١٤٠٥م) .

كما درس على محمد بن محمد العريضي (ح:٨٢٣هـ/١٤٢٠م) تلميذ ابن الأعرج . والظاهر أنّ قراءته على الأخيريَن منهم كانت في "جزّين" . أمّا قراءته على ابن نجم الدين فربما كانت في "الكرك" . كما أنّه شخُص إلى "الحلّة" حيث حصل على إجازةٍ من نظام الدين علي بن أحمد النيلي (ت:٨٠٠هـ/١٣٩٧م) . ذكرها تلميذه (أي تلميذ ابن العشرة) محمد بن أحمد الصِهْيَوني العيناتي (ح:٨٧٩هـ/١٤٧٤م) في إجازته لعلي بن عبد العالي الميسي (بحار الأنوار:١٨/١٠٨) . كما أنّه حصل على إجازةٍ من أبي طالب محمد بن الشهيد . أشار إليها الحسن بن زين الدين الجُباعي في إجازته المعروفة بالكبيرة (بحار الأنوار:٥٠/١٠٩) . فهذا مُلخّصٌ لسعيه في التحصيل والطلب .

استندنا في نسبة الفضل بتأسيس المركزيّة العلميّة في "الكرك" لابن العشرة إلى ما نعرفه من عديد تلاميذه ، وأكثرهم من معارف الفقهاء في زمانهم . فضلاً عن مُلابساتٍ ذات دلالة سنقفُ عليها . وفي هذا وذاك مقياسٌ صحيحٌ للحِراك الفكري غير المسبوق الذي أثارهُ من حوله في وطنه .

أولئك التلاميذ هم :

١. محمد بن علي الجُباعي (ت:٨٧٦هـ/١٤٧١م) . ترجم لشيخه في المجموع المنسوب إليه (مجموع الجُباعي) ترجمةً اقتبسها المجلسيُّ بتمامها في (بحار الأنوار:٢٠٩/١٠٧) . قال في ختامها : "وقرأتُ عليه كثيراً" .

٢. محمد بن محمد بن المؤذّن الجزيني (ح:٨٨٤هـ/١٤٧٩م) . قال في إجازته لعلي بن عبد العالي الميسي : "وبطريقٍ آخَر عن شيخي الأفضل عز الدين الحسن بن العشرة" (بحار الأنوار:٣٥/١٠٨) .

٣. محمد بن أحمد الصِّهْيَوني العيناتي .قال في إجازته للميسي نفسه : "وأجزتُ له أن يروي عني عن الشيخ عز الدين بن العشرة" .

٤. محمود بن أمير الحاجّ . وهو فقيهٌ لا نعرفُ عنه ما يُذكَر. ولكنّ السيّد الأمين يصفه بأنه "من مشايخ الإجازة" (أعيان الشيعة: ١٠٢/١٠) . وهو عند كاتب السيرة الواسع الاطلاع عبد الله أفندي "يروي عن ابن العشرة الكركي" (رياض العلماء:٢٦٥/١) .

٥. محمد بن الإسكاف الكركي . وهو الوحيد من تلاميذه الذين نعرفهم من أبناء "الكرك" . يأتي عبد الله أفندي على ذكره عَرَضاً أثناء الترجمة التي علّقها لابن العشرة .

حيث قال : "ويروي عنه الشيخ محمد بن الإسكاف الكركي" (رياض العلماء:١/٢٦٤) . ولم يُذكَر على الإطلاق في كافّة المصادر ، خصوصاً في (أمل الآمل) و (أعيان الشيعة) . ودلالةُ ذلك غير خفيّة .

٦. علي بن هلال الجزائري (ح:٩٠٩هـ/١٥٠٣م) . نسبةً إلى "الجزائر" ، التي عُرفت قديماً بـ "البطائح" ، وتُعرف اليومَ بـ "الأهوار" ، وباللهجة المحلّيّة بـ "الجبايش" (بالجيم المُثلّثة) .

يصِفُ الجزائري نفسه في إجازته لعلي بن عبد العالي الكركي ، التي صدرتْ في "الكرك" بتاريخ منتصف شهر رمضان سنة ٩٠٩هـ/١٥٠٢م بـ " الجزائري مولداً ، والعراقي محتداً وأصلاً " (بحار الأنوار : ١٠٨ /٢١) . ويقول في الإجازة نفسها : " وأجزتُ له أن يروي عني ، عن شيخي المولى الشيخ الأعظم العالِم الفاضل الكامل الشيخ عزّ الدين حسن بن يوسف الشهير بابن العشرة " . والذي يُؤخذُ من مجموع الإجازات التي نالها أو صدرتْ عنه في "الكرك" أنه وردهاَ فتيّاً ، وأنّه عاش فيها بقيّةَ عمره الطويل ، والظاهر أنه توفي فيها .

وفي أيّام ابن العشرة قصدَ "الكركَ" الفقيهُ أحمدُ بن فهد الحلّي ، حيث أقام بضع سنين . وكان فيها بتاريخ ١٢ شعبان ٨٤٠هـ/ ١٤٣٧/٢/٧م حيث أجاز ابنَ العشرة . (نصّ الإجازة في أنيس المُسافر ، المطبوع تحت اسم "الكشكول" للشيخ يوسف البحراني :٢/٩٣.١٨٨) وفي أيّامه أيضاً ، وتحديداً سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢م ، قصدها الأخباريّ محمد بن علي بن أبي جمهور الأحسائي (ح:٩٠١هـ/١٤٩٥م) ، حيث استجاز شيخها ابنَ هلال (الشوشتري: مجالس المؤمنين:١/٥٨٠) .

وفي ذاك وهذا ، في عديد تلاميذ ابن العشرة ، وفي قصدها في أيامه من فقيهيَن عراقيين شهيرَين ، دليلٌ ساطعٌ على المكانة التي بلغتها "الكرك" في أيامه وبفضله . والحقيقةُ أنّه لم يتوفَّ سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٧م إلا بعد أن وطّد لنفسه مكاناً سامياً في تاريخ بلده ، وفي تطوّر وضعها بصفتها مركزاً علميّاً ، وعبرها في التاريخ الثقافي لـ "جبل عامل" .

هذا السّردُ يوصلنا إلى أبرز مَن أنجبته "الكركُ" في ذلك الأوان، بل في كلّ الأزمان ، في نهضتها القصيرةُ العمُر . أعني عليّاً بن عبد العالي الكركي (٨٧٠.٩٤٠هـ /١٤٦٥.١٥٣٣م) ، صاحبَ الدور التاريخي في "إيران" . الرجل الذي كان الفاتحةَ والعنوان

وصاحبَ المُبادرة الأُولى للانتشار العاملي الكثيف والفاعل فيها . وحمل إليها ثمار النهضة العامليّة ، وبالتحديد الهُويّة الفكريّة الجامعة لمدرسة الشهيد الأوّل ، بعد أن نضجتْ ونمتْ خلال قرنين على أيدي العشرات من أعلامها .

وخلافاً لِما يدورُ على الألسنة ، فإنّ اسمَه علي بن الحسين بن عبد العالي . وقد ذُكر أبوه بالاسم في إجازتين للابن من شيخيه علي بن هلال الجزائري ومحمد بن علي بن محمد ابن خاتون العيناتي (بحار الأنوار:١٠٨/٢٠ و٣١) بما يدلُّ على أنّ الأبَ كان رجلاً من عُرُض الناس . وربما كان ربَّ أُسرة تعيش من زراعة الأرض لحساب أحد الاقطاعيين ، كما كان شأنُ أكثر الناس في منطقته في ذلك الأوان . ولكنّ الابنَ اتخذ طريقه الطويل في الطلب والتحصيل على شيخه الجزائري . وليس هذا ومثله بالأمر النادر في رجالات النهضة العامليّة ، خصوصاً المؤسّسين منهم .

كان نزولُ الشيخ الجزائري "الكرك" ودراستَه على شيخها المؤسّس ابن العشرة الفرصةَ التي سنحتْ لابن عبد العالي فاهتبلها هذا حتى النهاية . ومن هنا نراه يُطنبُ بفضل شيخه العميم عليه . ومن ذلك ما قاله في إجازته لابن أبي جامع : " . . . فممّن قرأتُ عليه وأخذتُ عنه . ولازمتُهُ دهراً طويلاً وأزمنةً كثيرة . وهو أجلُّ أشياخي وأشهرهم . وهو شيخ الشيعة الإماميّة في زماننا غير مُنازَع . شيخنا الشيخ الإمام [. . . .] المُعمّر الأوحد الفاضل ، مُلحقُ الأحفاد بالأجداد ، علي بن هلال قدّس الله نفسَه الزّكيّة" . ثم قال : " قرأتُ عليه المنطق والأُصول والفقه . واستوعبتُ كتابَ قواعد الأحكام قراءةً عليه ، وكثيراً من مُختلَف الشيعة من مسائل الشريعة من مصنفات شيخنا الإمام جمال الدين بن مُطهّر الحلّي . وجميعَ شرح تهذيب الوصول إلى علم الأُصول وغير ذلك (بحار الأنوار: ١٠٨ /٧٠) . فمن هنا قلنا أنّه تربّى ونضج على يد الجزائري . وعلى كلّ حال فإنّ هذا النص من أثمن النصوص التي حملتها إلينا الإجازاتُ من ذلك الزمان .

الفقرة الأُولى تُلخّصُ سعيَ ابن عبد العالي وفضلَ شيخه عليه . ذلك الذي نزلَ "الكرك" قادماً من منطقته البائسة . حيث التقى بشيخها ابنَ العشرة الكسزاني ، القادم أصلاً من منطقته المنكوبة . ومع ذلك فإنّ هذين اللقائين المُتواليَين قد أنتجا من قلب البؤس والنكبة ما لا نزالُ ننعم ببركته حتى اليوم .

والفقرة الثانية تُقدّم لنا وثيقةً فريدةً ، في حدود ما نعرف ، عن المنهج الدراسي الذي كان مُعتمَداً والكُتُب التي كانت تُدرّس في بيئة "الكرك" في ذلك الأوان . على أنّ

المغزى الأساسي والعميق لنصّ الكركي في هذا السياق هو السيطرةُ الكاملةُ لمدرسة "الحلّة " على مُجمَل الحِراك الفكري فيها .

بتاريخ "حادي عشر ذي الحجّة تسعمئة هلاليّة" / ١٤٩٥/١٠/١٩م نال الكركيُّ إجازةً من محمد بن علي بن محمد بن خاتون (نصّها في بحار الأنوار:١٠٨/٢٠.٢٧) ، شيخ "عيناتا" الأكبر بعد وفاة شيخه أحمد بن الحاج علي العيناتي . وهي إجازةٌ حفيلةٌ ، ذات قيمةٍ خاصّة . لأن كاتبها أنزلَ فيها نصوصاً أمينةً لعدّة إجازاتٍ مفقودة . وهذا يدلُّ على دقّة ابن خاتون ، وعلى اهتمامه بتسجيل وحفظ الوثائق . و ما من تنصيصٍ فيها على أن الكركي قد قرأ على شيخه . بل إنّ من شبه المقطوع أنّه ليس من أساتذته . وإلا لذكره بهذه الصفة فيما حرّره بعدُ من إجازات . إذن ، فهي لمُجرّد وصْلِ أسناده بشيوخ المُجيز . وليس هذا بالأمر النادر .

في مطلع الإجازة يصِفُ ابنُ خاتون الكركيَّ بـ "العالِم العامل والرئيس الكامل". وهذه أوصافٌ غير عاديّة . هي بالتأكيد ليست من تلك الأوصاف المجّانيّة التي درجَ مُحرّرو الإجازات على حشْو إجازاتهم بها . ونعتقدُ أنّها تُعبّرُ بصدق عن تأثّر ابن خاتون بشخصيّة ابن عبد العالي . التي نعرف أنها جمعتْ بين عُمق التفكير والقوة والمقدرة .

في السنة ٩٠٣هـ/١٤٩٧م كان ابنُ عبد العالي في "دمشق" . وفيها أجاز حسين بن محمد الحرّ (نصها في بحار الأنوار:١٠٨/٥٤.٥٧) ، جدّ أُسرة آل الحرّ في "مشغرة" فيما بعد . والظاهر أنه كان إذ ذاك في بداية رحلته الواسعة . التي زار أثناءها "دمشق" و "بيت المقدس" ، "مكة" و " ومصر" و "الخليل" . وأقام في كل بلدٍ منها مدّةً ، حيث أخذ وتحمّل عن فقهائها ومُحدّثيها . وقد أحصى عدداً من شيوخه أثناء هذه الرحلة في إجازته لعلي بن عبد العالي الميسي وابنه إبراهيم (بحار الأنوار:١٠٨/٤٦) وفي إجازته لصفي الدين عيسى (نفسه : ١٠٨/ ٨٠) .

في وقتٍ ما قُبيل أو أثناء السنة ٩٠٩هـ/١٥٠٣ م آبَ من رحلته الواسعة إلى مسقط رأسه ، بعد أن قضى من التجوال ولقاء الشيوخ أربه . وكأنما لم تكن أوبته إلا ليُلقي النظرةَ الأخيرة على البلد الذي رأى فيه النور . ذلك أنه في "يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان سنة تسع وتسعماية" / ١٣ آب ١٥٠٣م استجاز شيخه الجزائري (نص الإجازة في بحار الأنوار:١٠٨/٢٨.٣٤) . هي الإجازة الأخيرة في تاريخه العلمي . وفي العام نفسه أو بُعيده بقليل "سنة تسعٍ وتسعماية تخميناً أو قريباً" (نفسه / ٦٩) غادر وطنه الذي لم يرَهُ بعد ذلك ابدا . وعند هذه النقطة تنقطعُ علاقة سيرة الشيخ الكركي ببحثنا هنا .

إن أبرزَ أُسرةٍ أنجبتها "الكرك" في فترة نهضتها هم أبناء أُسرة بني الأعرج الكركيّة . وهي أسرة مُعرقةٌ في تاريخ "جبل عامل" الثقافي رافقته منذ بداية نهضته حتى غروبها بالهجرة الواسعة إلى "إيران" . حيث بنوا لأنفسهم مكانةً عالية .

وأوّلُ مَن نعرفه من رجالات الأُسرة قد ذكرناه قبل قليل بوصفه تلميذاً للشهيد الأوّل وأستاذاً لابن العشرة هو نجم الدين الحسن بن أيوب الأطراوي . وهذه "الأطراوي" نسبةً إلى قريةٍ أو مزرعةٍ دارسة في "جبل عامل" اسمها "أطرا" (رياض العلماء:١/١٦٢) ، ثم ابنه جعفر الأطراوي أيضاً ، ثم ابن هذا الحسن (ت:٩٣٣هـ/١٥٢٩م) الذي يبدو أنّه أوّلُ مَن تحوّل إلى سُكنى "الكرك" ، بحيث أنّ الحر العاملي نسبه إليها (أمل الآمل:١/٥٦) .

والظاهر أنّ جزءاً من دراسة الحسن بن جعفر قد تمّت في "الكرك" على ابن خالته علي بن عبد العالي الكركي الشهير . ولكنّ الإجازةَ الوحيدة له التي وصلَ ذكرُها إلينا هي عن علي بن عبد العالي الميسي (ت:٩٣٨هـ/١٥٣١م) ساكن "ميس الجبل" (الذريعة :١٣/٣٦٧) .

برُزَ الحسن في "الكرك" بوصفه مدرّساً ممتازاً . ومن أبرز تلاميذه فيها علي بن هلال الكركي ، الشهير بالشيخ علي المنشار (ت:٩٩٣هـ/١٥٨٥م) ، شيخ الإسلام في "إيران" فيما بعد (انظر الترجمة له في كتابنا أعلام الشيعة /١٠٣٣ ومصادره) . وزين الدين بن علي الجُباعي ، الشهير بالشهيد الثاني (ق:٩٦٥هـ/١٥٥٨م) (الجباعي : الدرّ المنثور:٢/١٥٩) . وحسين بن عبد الصمد الجُباعي (ت:٩٨٤هـ/١٥٧٦م) . والحسين بن محمد بن أبي الحسن الجُباعي الموسوي (ق:٩٦٣هـ/١٥٥٥م) . وهذا جدّ أسرة آل أبي الحسن الكبيرة ، التي تشعّبت فيما بعد إلى فروع عديدية ، ما يزال أبناؤها حتى اليوم في "جبل عامل" و "العراق" و "إيران" . كما صنّف عدداً من الكُتُب ، التي تدلُّ أسماؤها على عالِمٍ مُحيط (انظر الترجمة له في : أعلام الشيعة/ ٤٤٨ ومصادره) .

كان السيّد حسن الذّروة التي انحدرتْ عنها بلدتُه وأُسرته فجأةً . ففي أيامه سقطت المنطقةُ في يد العثمانيين ، وبذلك تبدّلُ المُناخُ الحرّ الذي عمل فيه الفقهاء الشيعة زمناً طويلاً بكامل الحريّة . وحلّ الخوفُ والترقّبُ والحذر مكانَ الحريّة المُطلقّة التي تتمتّعوا بها في بلادهم . الأمرُ الذي بلغ ذروته بجريمة قتل الشهيد الثاني زين الدين بن علي الجُباعي (ق:٩٥٦هـ/١٥٥٨م) . وكان ابنه حسين أوّلَ مَن هاجر من الأُسرة الأعرجيّة إلى "إيران". وهناك صار صدراً يحمل لقب الأمير . وله ذكرٌ عريضٌ في (عالَم آراي عباسي لإسكندر

بيك مُنشي :١/١٢٣و٢١٤و ٣٦٩) . وحمل أخلافُه المُتوالون من بعده لثلاثة أجيال لقب (ميرزا) ، وتقلّبوا في مختلف المناصب الدينيّة .

مُشجّرة بني الأعرج في الوطن والمهجر

نجم الدين الحسن بن أيوب ابن الأعرج الأطراوي

|

جعفر بن الحسن الأطراوي

|

حسن بن جعفر الأطراوي . الكركي

|

الأمير حسين بن حسن (الصّدر في ديوان الشاه)

\ | | | /

الميرزا حبيب الله أحمد الميرزا علي رضا محمد

(صدر الدولة) (شيخ الإسلام في طهران) |

| الميرزا إبراهيم

الميرزا مهدي (اعتماد الدولة) (قاضي طهران)

|

الميرزا معصوم

هذا فيما يرجعُ إلى الحياة العقليّة من تاريخ "الكرك" في صعودها وهبوطها .

وإنّنا إذ نلتفتُ إلى الشأن السياسي . العمراني من تاريخها فإنّنا لا نقعُ على الكثير ممّا يُفيد . وذلك أمرٌ متوقّعٌ من تأريخٍ نعرفُ أنه لا يمنح عنايته إلا للسُّلطة وشؤونها . وعليه فإننا سنقول بإيجاز ما لدينا على هذا الشأن في ملاحظات مُركّزة.

. الملاحظة الأُولى . لم تُنتج "الكرك" ، على الرغم من مكانتها الإداريّة والعلميّة ، سُلطةً مَحلّيّةً من أبنائها كما فعل أهلُ "جبل عامل" . بل كانت السُلطةُ عليها دائماً من خارجها . ونحن نعرفُ إجمالاً من مُختلف المصادر أنّ أُسرتيَن حاكمتيَن قد تعاقبتا عليها ما بين القرنين٨ و١٣هـ / ١٩.١٤م . هما أُسرتا بني الحنش السُنيّة وبني حرفوش الشيعيّة . وسنقفُ على القليل الذي نعرفه من أعمال الأُسرتين بما يخصُّ غرضنا هنا .

المُلاحظة الثانية : إن "الكرك" لا تُذكَر في التسجيلات التاريخيّة إلا حيث يتقاطع شيءٌ من أخبارها مع شؤون السُلطة . وخصوصاً السُلطة المركزيّة في "دمشق" .

فيما يرجعُ إلى الملاحظة الأُولى . فنحن نعرفُ أن بني الحنش أُسرة بدويّة ، صعدتْ إلى السُلطة عن طريق قيادة الفلاحين والبدو في المُهمّات العسكريّة التي كانت السُلطة الإقليميّة في "دمشق" بحاجةٍ إليها (ابن يحيى : تاريخ بيروت /٢١٦ و الغزّي : لُطف السّمر:٢/٦٦٦) . وأقدم مصدرٍ أتى على ذكرهم مرسومٌ سلطاني مرقومٌ على الحجرفوق الباب الجنوبي الغربي لمسجد "الكرك" تاريخه " العشر الأخيرمن سنة ثمانين وسبعمائة" / ١٣٧٨م ، يُفيد أن أبو بكر بن الحسن بن الحنش كان على عمل البقاع من مركزه في "كرك نوح" (Janine Sourdel Thomin: Inscription Arabes de Karak nuh p. ٦) . ولكن أبرزَ ما أتانا على هذه الأُسرة وعلاقتها بـ "الكرك" هو الوقفيّة الهائلة التي أوقفها الأميرمحمد بن ناصر الدين بن الحنش بتاريخ ١٢رجب ٩٠٥هـ /١٤٩٩م على مقام النبي نوح (ع) وجعل الناظر المُتكلّم على ما أوقفه السيّد حسين بن موسى بن علي الحسيني ، جدُّ أُسرة السّادة آل مرتضى المُقيمة حتى اليوم في "بعلبك" و "دمشق" . ووثيقة الوقفيّة محفوظةٌ في الإرشيف العثماني بـ "استانبول" برقم ٥٥١ تحت عنوان "بعلبك" . ولدينا صورةٌ ضوئيّةٌ لها .

هناك وجهٌ آخَرٌ لأهميّة هذه الوثيقة هي أنها تضمّنت نصّاً آخَر نادراً على وقفيّةٍ سابقة على المقام نفسه ، هي وقفيّة الأمير تنكز الحسامي نائب السلطنة على "الشام" (٧١٢.٧٤٠هـ/١٣١٢.١٣٣٩م) . وهي أقدمُ وثيقةٍ وصلتنا على المقام .

مأثرة أُخرى تُذكَر للأمير تنكز هي استصلاح الأرض الشاسعة بين "الكرك" و "طريق الشام" الفاصلة بين البقاعين . وكانت بقعة مُستنقعة تغمرها المياه وغابة أقصابٍ وقش . فحفر فيها مبازل باتجاه مجرى "نهر الليطاني" ، " وعمرت قرايا ما ينيف على عشرين قرية ، وأقبلت مغلاّتُها شيءٌ لا يُحدّ ولا يُوصَف . وحصل للناس نفعٌ عظيمٌ ومعاش " (أبو الفداء : تقويم البلدان / ٤٠) . كما أنه أجرى "الصدقات الشريفة على الخطباء والمؤذنين والقُرّاء والطُلاّب والمجاورين بحرم سيّدنا نوح عليه السلام" . وما يزال الرقيم على الحجر المُتضمّن هذه المأثرة الفريدة على عمود داخل المسجد بمواجهة الباب الشرقي .

أمّا أُسرة بني الحرفوش ، فقد كانت أُسرةً منكودة بسبب ضعف أدائها السياسي (انظر مادّة : "حرفوش") . ومن ذلك أنّه لم يُذكر لها إطلاقاً أدنى عناية بالحوزة العلميّة للبلدة . الأمر الوحيد الإيجابي الذي يُنسَبُ لها في هذا النطاق أنّها أنجبتْ الفقيهَ اللغويّ الشاعر المّصنف محمد بن علي الحرفوشي الكركي (ت:١٠٥١هـ/١٦٤١م) (انظر الترجمة له في : أعلام الشيعة/٣٧.١٣٣٦ ومصادره) .

أضِفْ إلى ذلك أنّ أحد أُمراء الأُسرة الأمير جهجاه بن مصطفى (حكم:١٢٠٠ .١٢٣٢هـ/١٧٨٥.١٨١٦م) هو الذي تنازل لأمير "جبل لبنان" الأمير بشير الشهابي المعروف بالكبيرعن ملك "الكرك" سنة ١٢٢هـ/١٨٠٧ م. فصارت ملكاً لأولاده الأُمراء قاسم وخليل وأمين (تاريخ زحلة/١٤٠) . وفي السنة ١٢٣٠هـ/١٨١٤م نال الأمير بشير نفسه براءةً بتملّك أرض "مُعلّقة زحلة" المُجاورة ، وكانت يومذاك أراضيَ زراعيّة ، فنقل أهلَ "الكرك" ، كما نقلَ بناءَ الشُّونة (السّراي الرسمي) إليها . "فعمُرتْ "المُعلّقة" وخرِبتْ "الكرك" (نفسه / ٦٩ و ١٤٧) ، حتى أصبحت قريةً حقيرةً لاشأن لها .

آخرُ الكوارث التي نزلتْ بـ "الكرك" هي ما ارتكبه بحقّها العثمانيّون ، الذين بدأتْ كوارثها بهم . ذلك أنّهم أثناء الحرب العالميّة الأُولى ، جنّدوا أبناءها كُرها ليذهبوا إلى ميادين القتال البعيدة سيراً على الأقدام دون عودة . كما عمدوا إلى قطع أغراس بساتينها القديمة لاستعمال أخشابها وقوداً للقطار العسكري المُسيّر بين قاعدة "رياق" المُجاورة و "حلب" . وما يزالُ أهلها يتداولون بحسرة ذكرَ تلك البساتين الكثيرة ، التي كانت مصدرَ عيش أهلها مدّة قرون .

ولقد ظلّت "الكركُ" على هذا الوضع البائس حتى وقتٍ قريب . إلى أن نهضت من جديد ، وها هي تمتدُّ اليومَ باطّراد صعوداً باتجاه "بحوشه" ، ونزولاً باتجاه السهل أدناها . ومع ذلك فإنّ من بقايا بؤسها أنّها ما تزال محرومةً حتى من اسمها التاريخيّ . ذلك أننا لا نجِدُ في التسجيلات الإدارية بلدةً تحملُ ذلك الاسم المجيد .

—

مصادر البحث

آغا بزرك الطهراني:الذريعة إلى تصانيف الشيعة ، ط. بيروت دار الأضواء لات . ابن فضل الله العُمري: التعريف بالمُصطلَح الشريف ، ط. بيروت ١٩٨٨م باعتناء محمد حسين شمس الدين . ابن منظور : لسان العرب ، ط. بيروت ١٩٦٨م . ابن يحيى : تاريخ بيروت ، ط. بيروت ١٩٩٠م . اسكندر بيك مُنشي : عالَم آراي عباسي ، ط. طهران ١٣٧٧هـ.ش باعتناء محمد إسماعيل رضواني . إسماعيل أبو الفداء الحموي : تقويم البلدان ، ط. دار الطباعة السلطانيّة في باريس ١٨٤٠ ، أنيس فريحة : معجم أسماء القُرى والبلدان اللبنانيّة وتفسير معانيها ، ط. بيروت ١٩٩٢م . جعفر المهاجر: أعلام الشيعة ، ط. بيروت ١٤٣١هـ/٢٠١٠م ، الشهيد الأول عصره سيرته أعماله وما مكث منها ، ط. قم ١٤٣٠هـ/٢٠٠٦م في مقدمة (موسوعة الشهيد الأول) . الحر العاملي : أمل الآمل ، ط. بغداد ١٣٨٥هـ باعتناء أحمد الحسيني . الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ط. بيروت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م . عبد الله أفندي الإصفهاني الجيراني : رياض العلماء وحياض الفضلاء ، ط. قم ١٤٠١هـ . عبد الله الشوشتري : مجالس المؤمنين ، ط. إيران لات . علي الجباعي : الدر المنثور من المأثور وغير المأثور ، ط. قم ١٣٩٨هـ . عيسى اسكندر المعلوف : دواني القُطوف في تاريخ بني معلوف ، المطبعة العثمانيّة ، بعبدا ١٩٠٧ ، تاريخ زحلة ، ط. زحلة ١٩١١ . القلشندي : صُبحُ الأعشى ، نشرة وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر، نسخة مُصوّرة عن الطبعة الأميريّة ، لات . المجلسي : بحار الأنوار الجامعة لدُرر أخبار الأئمة الأطهار ، ط. بيروت ١٤٠٣هـ /١٩٨٣م . محسن الأمين : أعيان الشيعة ، ط. بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م . مؤلف مجهول : وقف السلطان الناصر محمد بن قلاوون على مدرسته بالرُّميلة ، ط. برلين . بيروت ٢٠١١م باعتناء هويدا الحاثي . نجم الدين الغزّي : لُطف السّمَر وقطفُ الثمر، ط. دمشق١٩٨١. ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ط . بيروت دار صادر دار بيروت لات . يوسف البحراني : أنيس المسافر (طُبع باسم "الكشكول") ط. بيروت ١٩٤٦م . اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ط. حيدر آباد الدكن ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م .

Janin sourdelle Thomin . Inscription Arabes De Karak Nuh , Paris ١٩٤٩ .

—